الفصل الرابع

الأمير ريتشارد

كانت دوقية أكيتان Aquitaine في العصور الوسطى تنبسط في وسط فرنسا، وتمتد ما بين نهر اللوار في الشمال وحتى جبال البيرينيه في الجنوب. وكانت تلك الإقطاعية غنيةً بحقولها الخصبة، وينابيعها الثَرَّة (بما في ذلك نهر الغارون)؛ ولهذا فإنّ اسمَها الوسيط مأخوذٌ من الكلمة اللاتينية أكوا aqua، أي ماء. وإلىٰ جانب ذلك فقد كانت غنيةً بالغابات التي كان حكّام الدوقية العريقون يصطادون فيها، والذين يمتدُّ تاريخ أُسرتهم النبيلة والحاكمة إلىٰ حدود سنة 660م. أمّا تاريخُ المقاطعة فحافلٌ بالأحداث والتحولات بسبب الأمزجة القوية والمستقلّة والرومانسية لشعبها. ومن أجل ذلك يقول رالف أُوف ديستو Ralph of Diceto، وهو كاتبُ حولياتٍ من القرن الثاني عشر الميلادي: «عندما يقوم الأكيتانيون بإخضاع أعدائهم فإنهم يفعلون ذلك بقسوةٍ وشدَّة. لكن عندما تنتهي الأعمالُ الحربيةُ ويعودُ السلام؛ فإنَّهم ينصرفون وبالحماسة ذاتها للهو وإمتاع النفس».

كان ويليام William التاسع دوق أكيتان فيما بين سنتي 1087 و1127م؛ ممثلاً حقيقياً لتلك الروح الجريئة والشاعرية للأسرة النبيلة. كما كان مقاتلاً كبيراً في الحملة الصليبية الأولى، التي أسّست المملكة الصليبية في القدس. لكنّه

بعد نهاية المعارك صار أولَ شعراء ومغنّي التروبادور، بادئاً بذلك تقليداً استمرّ مائتي سنة في جنوب فرنسا، وحفل بالشعراء والمنشدين الذين تجوَّلوا في تلك الأصقاع يغنّون للحب وفَقْد الحبيب والشوق إليه بلسانهم المحلّي المعروف باسم اللانغ دوك Langue D'oc. وفي الحقيقة فإنّ ويليام بعد عودته من الأراضي المقدَّسة انشغل تماماً بتلك الأعمال والغنائم الأقلَّ دلالةً على البطولة، لكنَّها الأكثر إرضاءً للقلب والمشاعر، متأثِّراً في ذلك بأشعار الغزل العربية التي سمعها في الشرق، ومُحوِّلاً بذلك أكيتان إلىٰ مركزٍ للثقافة والفن في أوروبا. وهناك قولٌ خبيثٌ شاع عن ويليام آنذاك مؤداه أنه «يعرف جيداً كيف يغنّي ويُنشد الأبيات المُطْرِبة». وأنه «قضى وقتاً طويلاً يسرح في البلاد ليخدعَ بأغنياته الغواني». بيد أنَّ الدوق الذي كان قادراً على أسْر قلوب السيدات، وعلى إنتاج الثقافة والفنّ؛ كان أقلّ توفيقاً في السيطرة على أتباعه (من الإقطاعيين الصغار)، وعلى إرغامهم على الخضوع له. فقد كان الڤيكونتات من ليموج وفولغرن وأنغولام، واللوردات من لوزينيان وتيللبورغ، والكونتات من لامارش وتولوز، في خصامٍ شبه دائم؛ بل وفي تمردٍ مستمرٍ على سيدهم الإقطاعي المقيم في بواتييه Poitiers. ومن جهةٍ أخرى؛ ففي الوقت الذي لم يكن فيه هؤلاء على وفاقٍ مع سيّدهم ببواتييه؛ فإنّ الدوقَ نفسَهُ كان أيضاً في غالب الأحيان في خصومةٍ مع ملك فرنسا، الذي كان الدوق، وكانت دوقيته تحت سيطرته الاسمية. على أنّ سنة 1137م شهدت محاولةً معتادةً للإصلاح بين العرش الفرنسي، ودوقية الجنوب الغنية. وقد استُعملت في تلك المحاولة الأداة الأكثر قابليةً للنجاح في ذلك الزمان: الزواج الملكي! ففي تلك السنة تزوج ابن الملك لويس السمين ـ وهو فتىً في السادسة عشرة من العمر، شاحب اللون، خائر القوى، ووليّ لعهد فرنسا بلقب لويس السابع ـ ابنة ويليام التاسع دوق أكيتان. كانت أليانور Eleanor الأكيتانية فتاةً في الخامسة عشرة من عمرها، رائعة الجمال، صَبوحة الوجه، يتوسطه فمٌ يقال إنه كان في فتنة وروعة براعم التفّاح. بيد أنّ أكثر ما ميّزها على الجميلات الأُخريات كان إشراقة قسماتها، وعلمها

الغزير، وقوة شخصيتها. وكان لاجتماع هذه الصفات في العروس أنْ يُثبِتَ أنها تفوق قدرات لويس الشاحب على الضبط والسيطرة. لكنْ لمدة خمس عشرة سنة حلَّ سلامٌ من نوعٍ ما بين ملك فرنسا ودوق أكيتان؛ إذ صار ملكُ فرنسا سيداً وكونتاً على أكيتانَ، كما صارت دوقة أكيتان الملكةَ القاهرةَ لفرنسا كلّها!

خلال خمس عشرة سنة من الزواج الملكي أنجبت الملكة إليانور ابنتين. بيد أنّ تربية الأولاد ما كانت ضمن اهتماماتها. لذلك، وبعد سقوط الرُّها في أيدي المسلمين سنة 1146م، ذهب ملك فرنسا مع زوجته أيام الفصح إلىٰ فيزيلي، حيث جثيا جنباً إلىٰ جنبٍ أمام المذبح المنصوب في العراء في مواجهة رجل الدين الكبير القديس برنارد أُوف كليرڤو، الذي جعلته شخصيته الجذابة الزاهدة، وحماستُه المؤثّرة، وخطاباتُهُ النارية، الداعية الأكبر للحرب الصليبية الثانية، ورجل الدعاية الرسمي للفاتيكان، يَعِدُ باسمه بغفران الذنوب وبالفردوس أولئك الذين يسارعون إلىٰ الخدمة المقدَّسة في ساحة القتال. تحدَّث برنارد عن «الفروسية الجديدة» التي تتضمّنها الخدمة في الحرب المقدَّسة من أجل الصليب. إنهم مباركون، أولئك الذين يُدْعَون في سنة اليوبيل: «افرح، أيها المحارب الشجاع، إذا عشتَ وانتصرتَ وفتحتَ باسم الرب. لكن ليشتدَّ بكَ الجَذَل، ولتشكر ربك أكثر إذا مِتَّ وذهبتَ إلىٰ جوار الله. إنّ الدنيا يمكن أن تكون مثمرة، والنصر يمكن أن يكونَ ماجداً. بيد أن الموت من أجل العدالة والحق هو الأكثر قيمة. مبارَكون أولئك الذين يتفانَون في الله. أما الأكثر رحمةً وبركةً فأولئك الذين يموتون في سبيله».

قام لويس السابع وإليانور أُوف أكيتان من ركوعهما حاملَين الصليب، فتصاعدت الصرخات من كلّ الأنحاء: إلىٰ القدس! وانصرف شبانٌ متحمّسون إلىٰ توزيع صلبانٍ صغيرةٍ هدايا للمتجمهرين. لقد أتى نبلاءُ الفروسية الجديدة من سائر أنحاء أوروبا: «يشتعلون حماساً وتقودهم التقوى». بيد أنه ما كان مقدَّراً للويس وإليانور أن يذهبا إلىٰ القدس من أجل المجد، بل من أجل العار

في تركيا والإذلال في دمشق. ولسنواتٍ بعد الكارثة ظلَّ رجّالة المقاتلين الصليبيين يتذكرون بسخطٍ وانزعاج مشهد إليانور ممتطيةً صهوة جوادها بكامل عُدَّتها الحربية، يحيط بها الفرسان الصليبيون، وتتبعُها جواريها وخَدَمُها وخطٌّ طويلٍ من البغال الحاملة لأثقال أمتعتها. وتلت ذلك فضيحةٌ أخرى أشنع خيّمت على الحملة الصليبية الثانية كلّها. فقد شاع أنّ إليانور المنصرفة إلىٰ أهوائها، عندما وصلت إلىٰ أنطاكية، وكانت وقتها في الخامسة والعشرين من العُمُر، انهمكت في غَزَلٍ مُشينٍ مع عمّها ريموند الأنطاكي انتهى بها في سريره. ومن أجل ذلك فإنّ زوجَها البائس لويس وضعها تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ طَوالَ ما بقي من شهور الحملة الصليبية. وهكذا استقرّ في أذهان العامّة أنّ فَشَلَ الحملة الصليبية الثانية، يعود إلىٰ معاصي إليانور، التي صارت الشاةَ السوداءَ لتلك الحملة المهزومة. وبعد سنواتٍ قليلةٍ، عقِبَ العودة إلىٰ فرنسا، حدث الانفصالُ بين لويس وإليانور بحجّةِ أنّها لم تلد له مولوداً ذكراً يكونُ ولياً للعهد (مع أنّ الراجح أنّ الذنب في ذلك يعود للويس الورِع، وسلوكه إزاء زوجته بعد السنوات الأولى من الارتباط). لكنّ الطلاقَ كان مُكْلفاً لفرنسا. فمع رحيل إليانور دوقة أكيتان، عادت المقاطعة للانفصال عن مملكة فرنسا.

في سنة 1152م تزوجت إليانور ثانيةً من هنري الثاني Henri II ملك إنكلترا، وانضمّت بذلك دوقية أكيتان إلىٰ المملكة الإنكليزية. كان هنري الثاني رجلاً قويّ الجسد، شديدَ القسوة، وواسع الطموح، ويستطيع أن يقودَ نسبه إلىٰ نوح نفسه. ولهذا فقد كان ملائماً لإليانور العنيفة أكثر بكثيرٍ من لويس. وبالزواج من هنري بدأ الصبيان الذكور يتوالَون. وَلدت إليانور أولاً ويليام الذي مات طفلاً. ثم جاء هنري ثانياً. وهو الذي ثار على والده في فتوته. وجاء ريتشارد ثالثاً سنة 1157م، وهو الصبي الذي صار المفضَّل لدى والدته. وقد جاء التعبير عن تقلبات الحظّ تلك في تنبؤات الكهّان، وعلى لسان الساحرة الشهيرة مارلين، والتي تنبأت أنّ «النسر الكسير الجناح سيسعد بفرخه الثالث».

وقد كانت تلك نبوءةً غامضةً ومزدوجة المعنى. فأياً تكن علاقةُ الأُمومة الحميمة التي قامت بين إليانور وولدها الثالث؛ كانت تلك الأمُّ ذات الأجنحة الجريحة موزَّعةَ الولاء بين سُلالتين ملكيتين في فرنسا وإنكلترا؛ طُلّقت من الأُولى، وستنتهي إلىٰ السجن لدى الثانية.

قضى ريتشارد سنوات طفولته الأولى في أكيتان مع أُمّه؛ لأنّ ملكة إنكلترا كانت معتادةً على ثقافة البلاط في جنوب فرنسا، شديدة الاستمتاع بحريتها. ولذلك فإنها نادراً ما عَبَرت القنال إلىٰ المملكة الإنكليزية. وقد علَّمت ريتشارد منذ فتوته الأولى تقاليد البلاط في الحبّ والتعامل مع المرأة: فالمرأةُ هي وجودٌ مقدَّسٌ يكونُ على الرجل أن يقاربَها باحترامٍ وتبجيلٍ وحَذَر. فهي لا تتحدَّرُ من حوَّاء التي اعتاد جنسُها على الخدمة والهامشية؛ بل إنَّ مثالَها هو مريم العذراء المنتصرة، والتي بُنيت على اسمها عدةُ كاتدرائياتٍ في أوروبا في القرن الثاني عشر. وحسب هذه النظرة فإنَّ المرأةَ تتميز على الرجل بقواها العاطفية والروحية في مقابل قوته الجسدية الظاهرة ـ فيبقى الرجل أقلّ رقياً، وأقلَّ ذكاءً ونُضْجاً، وقدرةً على التدبُّر والتعقُّل ـ ويظلُّ القرارُ للكائنات الأثيرية الرائعة أن تُشفِقَ على ذلك الجنس المنحطّ فترفَعَهُ وتَهَبَهُ حبَّها واهتمامَها، أَو تُعرضَ عنه وتتركه يسقط! فقوة المرأة وتفوّقها في مواجهة الرجل كانتْ أمراً مسلَّماً.

في بلاط بواتييه كانت أحاديث الحبّ تُناقَشُ من جانب السيدات، بالطريقة نفسها التي كان الإغريق يناقشون فيها الشؤون السياسية؛ أي بطريقة السؤال السقراطية: ما معنى الحب؟ (إنه المعاناةُ الدائمة) ـ من أين استمدَّ العشقُ اسمَهُ؟ (من الكلمة التي أُخِذَ منها اسم الـ «الشَرَك»). من هو الرجل الذي يستحقُّ الحب؟ (الرجل ذو الشخصية فقط). ما هي طبيعةُ الغَيرة؟ (إنها ممرِّضةُ الحب. فمن لا يعرفُ الغيرة لا يعرف الحب. والغيرة الحقيقية تزيدُ دائماً من الإحساس بالحب). ماذا عن اللذَّة؟ (لا تسقط في أحابيل نساء اللذائذ. فالمرأة الباحثة عن المسرَّات لا يمكنُ أن تكسبَ حبَّها مَهْمَا حاولْتَ إلاَّ

إذا كانت ڤينوس قد وهبتك القدرة على إرضائها. ومع ذلك فإنَّ إرضاءها يبقى أصعب من تجفيف المحيطات). والطريفُ في الأمر أنّ الطابع الحسّي لهذه الأسمار والنقاشات، كان متأثراً إلىٰ حدٍ ما، بثقافة إسبانيا الإسلامية.

كانت الملكة إليانور تشارك في هذه النقاشات بحماسٍ وقوة. وفي أحد الأيام كان موضوع المداولة ما يلي: رجلٌ شابٌّ ليس ذا مقامٍ رفيع، وفارسٌ قديمٌ ذو أخلاقٍ عالية، يطلب كلاهما حبَّ المرأة نفسها، فأيُّهما تختار؟ وأجابت إليانور: «على الرغم من أنَّ الشابّ الواعد عندما يغمره الحبُّ يمكن أن يتحوّل إلىٰ نبيلٍ كبير؛ لكنّ السيدة لا تتصرّف بحكمةٍ إذا هي اختارت أن تحبّ شاباً ناشئاً، إذا كان الذي يطلب حبَّها في الوقت نفسه رجلٌ كبيرٌ وخَلوق. فقد يَحدثُ أن لا يتحسَّنَ خُلُقُ ووضْعُ الشاب رغم حصوله على حبّها. ذلك أنّ البذور التي ننثُرُها في التربة، لا تُنتجُ دائماً قمحاً».

أسهم البلاط المزدهر (في أكيتان) في إنتاج ثقافةٍ رومانسيةٍ جديدة. ففي صالاته قيلت أوائل أشعار الغزَل في الغرب الوسيط. وقد سُمّيت القصائد والنصوص الساخرة والأغاني باسم «عِلْم الغِلمان». وبتأثيرٍ من تلك الروح تصوّر توماس البريطاني حب تريستام وإيزولد، وكريستيان الطروادي قصة الحب الرومانسية بين لانسلوت وجينفر، ورواية الغراب Grail المقدّس. ومن تلك المسامرات والحوارات ظهرت الأحاديث عن قواعد الحب مع النصيحة **الأولى** والأهمّ: «كن مطيعاً في كلِّ ما يتّصلُ بأوامر السيدات ورغباتهنّ. ذلك أنّ هدفك ينبغي أن يظلَّ دائماً أن تَضَع نفسَكَ في خدمة الحبّ. والنصيحة **الثانية** التي تضاهي الأولى في الأهمية: عندما يستجيب لكَ الحبيب في الغرام: فإنّ عليكَ أن لا تتجاوزَ الحدودَ التي ترغبُ فيها الحبيبة».

أنشد شعراء التروبادور أناشيدَ الحبّ وقصائده بمختلف الصِيَغ، مما لم يكن معروفاً من قبل. وكان الموضوع الأكثر طروقاً حبّ البلاط، بحدوده

وتقاليده وآدابه. ومن ضمن ذلك أنَّ التابعَ المحبّ يخضعُ لسيدته أَو عشيقته خضوعاً تاماً. وعندما تُؤْثِرُ أن تلتفتَ إليه، فإنّ ذلك يكونُ شرفاً له. وكانت الوسيلة الأفعل للتعبير عن الحبّ: الأغنية. وهي قصيدةُ غَزَلٍ يمكن أن تمتد إلىٰ خمسة مقاطع، فيها مشاهد للعاطفة المتفجرة، والشكوى والهجر، والانتصار في معركة الحب والحرب، بل والمبارزة من أجل حماية الحبيبة وسُمعتها. وقد أسهمت الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، بفروسيتهما المبالَغ فيها، واستعراضاتهما، وأبطالهما مثل غودفري دو بويون، وحكاياتهما الخيالية عن الشجاعة والفَقْر؛ أسهمتا في تقدم فنّ التروبادور، والإعلاء من شأنه، وجلبتا من الشرق له بعض آلات الغناء مثل **البوق**، و**المزمار**، و**الربابة** و**الناي**. وقد بدأت رومانسيات الحروب الصليبية في بلاط إليانور، لتحلَّ محلّ حكايات الملك أرثر. فالمعروف أنّ لويس السابع، زوج إليانور الأول، أخذ فرقته من الشعراء والمغنين معه في الحملة الخائبة على دمشق. كما أنّ جَدَّ إليانور ويليام التاسع، الشجاع والمتقلب، كان رائدَ كلّ تلك الحركة الأدبية.

وكان يمكن لأدب البلاط ذاك أن يكونَ غير مؤدَّبٍ أبدّ. فماركابو، أحدُ شعراء البلاط وموسيقييه، كان يسلّي سيدات البلاط بأشعارٍ وأُغنياتٍ ساخرة عن الحبيبة الخائنة التي ضحَّتْ به، وتركته بدون حب. تحدّث الشاعر عن «المومسات الهائجات» بطريقةٍ مستخفّة، أمام ضحك سيدات البلاط وصُراخهنّ. وقد اصطنع شخصية «السيدة الجيدة والمثيرة»، وهاجم «المتوحشات في السرير». ولا شكّ أنّ الأمير ريتشارد الصغير كان يُصغي لكثيرٍ من تلك المشاهد الفاضحة بانتباهٍ وقد فارقت الدماءُ وجهه. لكنه ما كان يهتمُّ لبعض ما يُقالُ أَو يُنصَحُ به أيضاً في ذاك البلاط. فقد كان أندريه، أحد واضعي قواعد الحبّ في شعر البلاط ذاك ينصحُ المحبين الذكور، بنصيحةٍ أصرَّ ريتشارد على تجاهُلها: «الحبُّ لا يمكن أن يقومَ إلاَّ بين شخصين من الجنسين. فلا حبّ ولا عشقَ بين رجلين. لأنّه بين الرجال لا مجالَ لتبادُل المشاعر العاطفيَّة،

كما أنَّه لا مجالَ لممارسة النتائج المترتبة على العاطفة بطريقةٍ طبيعية. وكلُّ ما لا تُبيحُهُ الطبيعة؛ فإنّ الحبّ يخجلُ من القيام به».

وإذا كانت إليانور قد فضّلت فرنسا على إنكلترا؛ فإنّ ممتلكات ملك إنجلترا هنري الثاني في القارة شغلتْهُ كثيراً في تلك السنوات التي كان فيها ريتشارد يمضي من الطفولة إلىٰ الفتوة. فقد كانت أحداث تمرد البارونات الصغار على مليكهم لا تتوقف. كما أنّ العلاقات مع ملك فرنسا لويس السابع، زوج إليانور الأول، لم تكن جيدة. بيد أنّ المثير والطريف أنّه ما إن نجح الملك هنري بعد اثنتي عشرة سنة من الاضطراب في إخضاع الثائرين، وفي عقد سلامٍ مع ملك فرنسا سنة 1169م، حتى بدأ أولادُهُ واحداً بعد آخر يثورون عليه، ويحملون السِّلاح ضدَّه، في الفترة التي كانوا فيها يخطونَ من الفتوة إلىٰ الرجولة.

وما كان ريتشارد استثناءً من هذه الناحية. فقد كانت شكاوى الأولاد تتركَّزُ في أنَّهم يحملون ألقاباً ضخمةً دونما قوةٍ أو سلطة. ثم إنَّهم كانوا موزَّعي الولاء بين فرنسا وإنكلترا. كان ملك إنكلترا قد عيَّنَ ابنَهُ الأكبر هنري ولياً لعهده، لكنَّ الممتلكات الفرنسية التابعة للعرش الإنكليزي كانت تجعلُهُ أيضاً يدينُ بالولاء للعرش الفرنسي. ثم إنّ لقب «ولي العهد» ما كان يهبُهُ أيّ سلطةٍ أو قوة. كما أنَّ الممتلكات الفرنسية كانت تضعُ أولاد هنري الثاني في البلاط الفرنسي في أكثر الأحيان، مع ما يعنيه ذلك من دسائس ومكائد ومؤامرات طوالَ الوقت. أمّا ريتشارد فقد لُقِّب بدوق أكيتان. لكنه كان دوقاً اسمياً وحسْب. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره أراد أن يكون أكثر من مجرَّد حامل لقب.

وجاء تمرّد ولدي هنري الثاني عليه في وقتٍ شديد الصعوبة بالنسبة له. ففي ذلك الوقت بالذات، كان الأساقفةُ الإنكليز شديدي الانزعاج من مليكهم،

وبخاصةٍ **توماس بيكيت** أُسقُف كنتربري. فقد وضع الأُسقُف بيكيت استقلالية الكنيسة، فوق الولاء لملك البلاد؛ مما أغضب هنري غضباً شديداً. وفي أحد مجالسه مع النبلاء، عبَّر الملك عن سُخْطه على الأُسقف «الخبيث، والخائن، والكاهن العامّيّ الأصل والنشأة»؛ فسارع أربعةٌ من النبلاء الحاضرين الذين سخطوا لسخط سيّدهم إِلىٰ كنتربري حيث قتلوا توماس بيكيت أمام مذبحه. وما مضت ثلاثُ سنواتٍ على ذلك حتى كان بيكيت قد أُعلنَ قديساً. وكان على هنري الثاني بعد سنة على تلك القداسة، أن يمضي عَلَناً إِلىٰ قبر الشهيد وينحني أمامه بخشوع، تعبيراً عن إجلاله للقديس، وخضوعه لسلطة روما. وما وقف الأمر عند هذا الحدّ؛ بل إنّ ملك إنكلترا، وتعبيراً عن ندمه على المشاركة في التآمر على حياة بيكيت، تعهَّد للبابا أن يرسل مرتين سنوياً كميةً من الأموال والمعدَّات إِلىٰ الأرض المقدَّسة، ما يكفي لمساعدة مائتين من فرسان الهيكل والإسبتارية في ساحة المعركة. ومع الوقت فإنّ تلك المساعدة المادية، صارت مهمّةً جداً في تأمين الدفاع عن المملكة الصليبية في المشرق.

في سنة 1173م، وهي السنة التي طُوِّبَ فيه بيكيت قديساً؛ كان أبناءُ الملك هنري الثاني في ثورةٍ علنيةٍ عليه. أمّا الملكة إليانور، والتي كان قلبها هو الذي يقودها دائماً، فقد وقفت مع أولادها ضدَّ زوجها. وفي صيف تلك السنة، تعهد الفتيان هنري وريتشارد، وأخوهما الثالث جوفري لملك فرنسا «أن لا يتجاوزوه ولا يعصوه»، ويضيفُ كاتب الحوليات رالف أُوف ويستو إِلىٰ ذاك التعهد: «وأن لا يصالحوا والدهم إِلاَّ من خلال لويس السابع، والبارونات الفرنسيين». وتعهد الملك لويس السابع بالمقابل «بدعم الملك الشاب ـ هنري ـ وإخوته بكلّ ما وسِعَهُ من قوة، لكي يتابعوا حربهم على والدهم لحين الحصول على مملكة إنكلترا للشاب هنري». وخلال هذه المأساة العائليّة؛ استطاع هنري الثاني على الأقلّ، أن يضبط زوجته. فقد ألقى كشّافوه القبضَ على إليانور، متخفيةً بثياب رجل، وهي تحاولُ الفرارَ من أكيتان إِلىٰ باريس.

وأُرسلت الملكة إلىٰ إنكلترا حيث أُلقيت في السجن لتبقى فيه خلال الست عشرة سنة التالية.

جاء لقبُ ريتشارد «دوق أكيتان» من وراثته لتلك الدوقية من أُمّه. ولذلك فإنّ سَجن والده لوالدته زاد من غضبه عليه. وهكذا ففي سنة 1174م كان ريتشارد يحاول أن يجمع جيشاً من طريق إثارة البارونات الصغار على والده، وحصار بعض القلاع التي ما تزال على ولائها لهنري الثاني. وقد أزعج ذلك تدريجياً الملك الإنكليزي، وعَبَرَ القنال إلىٰ بواتييه لمواجهة ولده المتمرّد. في البداية هرب ريتشارد من وجه والده، لكنه ما لبث بعد فترةٍ أن عاد لبلاط الوالد ورمى نفسه على قدميه علامة التوبة والخضوع. وقد صفح عنه هنري مباشرةً. وفي سنة 1175م في لومانس LeMans شارك ريتشارد مع شقيقه الأصغر جيوفري في احتفالية مبايعةٍ لوالده. بيد أنّ المشكلات التي أحدثها للوالد لم تمرَّ بدون عقاب؛ فقد جُرّد من لقب الدوق، وصار واحداً من أتباع الملك الذين ينفّذون أوامره وتعليماته.

وجاءت أوامر الملك هنري الثاني لابنه ريتشارد في السنوات الخمس اللاحقة، موافقةً لهواه. فقد أسبغ عليه والده القوة والسلطة، لتمكينه من إخضاع البارونات المتمردين في أكيتان وغسقونيا، ومصادرة أملاك كلّ من يحاول المقاومةَ منهم. وكانت تلك المهمة هي التي جعلت ريتشارد قائداً عسكرياً للمرة الأولى. وقد انهمك لمدة في معارك مستمرةٍ تقريباً. إذ عمد أولاً إلىٰ إخضاع حصون أكيتان الشمالية: أغن Agen وأنغولام Angoulême، وشاتونوف Châteauneuf ومولیناف Moulinef وليموج Limoges، والتي كانت قد أعلنت عصيانها. ثم تحرّك القائد الشاب إلىٰ الجنوب نحو غسقونيا حيث أخضع العُصاة في دكس Dax وبايون Bayonne، وديول Deols وشاتورو Châteauroux. ومع كل نصرٍ على خصمٍ أو متمرّد كان ريتشارد يزداد قسوةً وعنفاً. بيد أنّ طبيعتَهُ العنيفة أعلنت عن نفسِها صراحةً في سنة 1179م حين

صبَّ جامَ غضبه على سانتوني Saintogne في الوادي المزهر على ضفاف نهر شارنت Charente؛ إذ هناك انتشرت شهرته في القارة كلّها. قبل عيد الميلاد سنة 1178م ضرب ريتشارد الحصارَ على قلعة پون Poun التي تحصّن فيها فارسٌ شرِسٌ اسمه جوفري أوف رانكون؛ كان يقود المؤامرة على سلطة الدوق في تلك الناحية. وقد أثبتت القلعة قدرتَها على الثبات خلال أربعة أشهُرٍ من الحصار. وقد تعلَّم ريتشارد من ذلك درساً طبَّقه فيما بعد في الأراضي المقدَّسة ويتّصل بإمكانية تجاوز الإرهاق الذي يحدُثُ نتيجةَ الحصار الطويل. بعد عيد الفصح سنة 1179م رفع ريتشارد الحصار عن قلعة پون، ليهاجم حصناً آخر أكثر مناعةً هو حصن تلليبورغ Taillebourg. أما أصدقاؤه ورفاقه فقد هزوا رؤوسهم استغراباً لفعلته الغريبة. ذلك أنّ حصن تلليبورغ كان عصياً أيضاً؛ إذ يقوم على قمة تلةٍ صخريةٍ مشرفةٍ على نهر شارنت، وهو ممتنعٌ من ثلاث جهاتٍ بمنحدراتٍ صخريةٍ شاهقةٍ لا يمكن تسلُّقُها. والجهةُ الرابعةُ للحصن ممتنعةٌ وراء ثلاثة خنادق وثلاثة أسوار. وقد تركها أسلافُ ريتشارد وشأنها لعدة عقودٍ رغم عصيان صاحبها، لا لشيءٍ إلاَّ لأنهم استصعبوا إمكانية الاستيلاء عليها. ولهذا، فإنّ حُماتَها كانوا غافلين ومطمئنين عندما عمد ريتشارد إلىٰ مهاجمتها. وهو لم يذهب لحصارها مباشرةً بل توجه أولاً إلىٰ تخريب الريف المحيط بها. إذ يقول كاتب الحوليات السالف الذكر إنه «نهب كلَّ ثروات المزارع، كما قطع أشجار الكروم، وأحرق القرى. وبعد أن دمَّر كل شيءٍ وأحرقه من حول الحصن وبجواره، اقترب منه ونصب خيام معسكره على حوائطه وأسواره، في الوقت الذي لم ينتظر فيه رجالاتُ البلدة شيئاً من ذلك». ولأنَّ اليأس سيطر على المدافعين عن الحصن فقد ارتكبوا خطأ القيام بهجومٍ مضادّ. وسارع ريتشارد إلىٰ الإحاطة بالخارجين من الحصن واستيعابهم وعزلِهم، مُسارعاً إلىٰ شقّ طريقه للداخل في أثر الفرسان المتراجعين، قبل أن يستطيعوا إغلاق أبواب السور. وبعد يومين استطاع الاستيلاء على القلعة الداخلية ذاتها، بعد أن كان قد استولى على البلدة. وانتشر خبر النصر العجيب الذي حقَّقه ريتشارد انتشار النار

في الهشيم؛ خلال وادي شارنت أولاً، ثم وصل إلىٰ ملك إنكلترا. وسارع العُصاة والمتآمرون إلىٰ الاستسلام واحداً بعد آخر، كما مضى بعضٌ منهم للقتال في الأراضي المقدَّسة عقوبةً وتوبة. وبعد تدمير أسوار حصون الثوار على طول نهر شارنت، مضى ريتشارد إلىٰ إنكلترا حيث استقبله والدُهُ «بكل مظاهر الحفاوة والتشريف».